خمسون مغنيا مغربيا يوثقون مئة أغنية من فن الروايس الأمازيغي

الرباط – تتميّز مدن الجنوب والداخل المغربي بنمط موسيقي مختلف يرتبط بأبعاد عميقة من التعبير عن الذات والهوية والآخر، ويسمى بـ"فن الروايس".

هذا الفن الذي تعشقه شريحة كبيرة من الأمازيغ سواء في المغرب أو حتى الدول المغاربية عامة، نظرا لكونه يعبّر عن هويتها وتاريخها، ساهم مؤدّوه من "الروايس" و"الرايسات" (قائد وقائدة الفرقة الموسيقية) من خلاله في الحفاظ على اللغة الأمازيغية عبر التاريخ وانتشارها في المدن الكبرى، حتى أنّ البعض اعتبروا تغني الروايس بالأمازيغية نشاطا نضاليا، فالرايس الذي يغني باللغة الأمازيغية يمنحها الحياة كما يعبّر عن وجوده وهويته.

وللحفاظ على حضور هذا النمط الفني، يعمل باحثون مغاربة على تأريخه وتجميع الأعمال الموسيقية النادرة والشهيرة في أسطوانات وتدريب أجيال من المغنين والموسيقيين عليها.

> فن الروايس، الذي يؤلّف عادة من جملة موسيقية واحدة تتكرّر عدة مرات، اتخذ كأداة للتوعية بالأبعاد الوطنية والروحية

وأصدر الباحث المغربي إبراهيم المزند، بحثا موسيقيا بعنوان "أنطولوجيا الروايس.. رحلة في عالم الروايس"، وضمنه مئة مقطع موسيقي، في عشر ألبومات، وألف نسخة مطبوعة، وثلاثة كتيبات أتت بالعربية والفرنسية والإنجليزية، وبمشاركة ثمانين موسيقيا منهم خمسون مغنيا ينتمون إلى مدن مغربية عديدة، هي أغادير وإنزكان ومراكش والدار البيضاء والصويرة وورزازات.

وجاء بحث المزند بعد عامين من الاعتكاف والعمل الميداني، كانت بدايتهما بحصص طويلة من التسجيل والتصوير لتجميع ثلة من الأغاني الخالدة في التراث الأمازيغي القديم، وكذلك بعض أغاني الجيل الجديد من الروايس، في مرجع موسيقي واحد.

وضمّن المزند بحثه الموسيقي كتيبا بثلاث لغات، يوضّح أصول موسيقى الروايس وتاريخها وتطوّرها بمرور الزمن وإيقاعاتها الخالدة، كما تناول مسيرة مجموعة من أشهر أسماء الروايس والرايسات في المغرب، الذين أصبحوا رواد هذا التراث الأمازيغي الأصيل.

ويعتبر الباحث الموسيقي محاولته في توثيق جزء من هذا الفن تكريما للروايس والرايسات، الكنوز البشرية الحية التي تواصل الحفاظ على هذا التراث الفني الذي يعتبر جزءا لا يتجزأ من التراث الموسيقي المغربي.

وصار "أنطولوجيا الروايس.. رحلة في عالم الروايس"، مرجعا موسيقيا ونافذة لمن يستكشفون تراث الروايس لأول مرة، إذ إنه يتطرّق لتاريخ موسيقى الروايس وأصلها وتطوّرها بمرور الزمن وإيقاعاتها وألحانها المختلفة، بالإضافة إلى الرقصات المتعددة أثناء العروض. وتأتي الألبومات المرفقة لتغني جملة من المعارف النظرية وتمنح القارئ تجربة فريدة من نوعها.

وأوضح المشرفون على البحث أن هذا العمل يشكل نتاج عامين من العمل والعديد من حصص التسجيل والتصوير لتجميع أكثر ما يمكن من الأغاني الخالدة في التراث الأمازيغي القديم، وكذلك البعض من أغاني الجيل الجديد من الروايس.

ويُعدّ فن الروايس المنتشر بكثرة في جهة سوس ماسة، إحدى الجهات المغربية، أحد أقدم الفنون بسوس والجنوب المغربي عموما، وأنجبت الساحة الفنية عمالقة منه في هذا المجال، ذاع صيتهم سواء على المستوى المحلي أو الوطني العربي أو حتى العالمي، ومنهم من لا يزال على قيد الحياة.

والرايس، كما توحي بذلك التسمية، هو رئيس وقائد المجموعة الموسيقية، ولقيادتها يشترط فيه أن يكون خطيبا طلق اللسان ومتمكنا من فنون الشعر والتلحين والعزف والغناء. ويقود الرايس مجموعته بآلة الرباب، وهي أبرز آلة في فن الروايس، قبل أن يتم تطويره وتدعيمه بآلات موسيقية حديثة، تضفي نوعا من الجمالية على هذا النمط الموسيقي دون إفقاده هويته.

وكانت بداية هذا النمط الغنائي مع الجوّالين الذين يطوفون الريف والمدن بأشعارهم التي تتطوّر بناء على السجال والحوار بين أكثر من شخص، ويشير الدارسون إلى أن هذه الأشعار المغناة كانت أحد أبرز أسباب حفظ اللغة الأمازيغية وجزء كبير من تراثها يتضّح في ما راكمه هذا الفن من تجارب حياتية اهتمّ أصحابها بتناول الواقع والاشتباك مع قضاياه.

ويعتمد الرايس (وجمعه رواس وروايس) على العديد من الآلات الموسيقية الشعبية التي لا تزال تستخدم إلى اليوم، ومنها الرباب، ولوطار، وهي آلات وترية ميّزت هذا النمط الموسيقي كحالة إبداعية فردية خارج سلطة الجماعة.

وكانت أولى محاولات تسجيل لأشرطة مغني الروايس في ثلاثينات القرن الماضي، وحظي إثرها هذا الفن بانتشار واسع في المغرب، لتتطوّر تقنياته وأساليبه بفعل التجريب الدائم.

واتخذ هذا الفن الذي يؤلّف عادة من جملة موسيقية واحدة تتكرّر عدة مرات، كأداة للتوعية، ذات بعد وطني وروحي، وجعلها الروايس خاضعة لشروط وضوابط محدّدة تحافظ على أصالتها، ومن أشهر الروايس في المغرب الحاج بلعيد وبوبكر أنشّاد وبوبكر أزعري وجانطي وغيرهم.

ويعتبر الحاج بلعيد مؤسّس هذا النمط الغنائي، وقد تناولت أغنية الروايس تقريبا كل المواضيع التي تهم، ليس الإنسان الأمازيغي فحسب، ولكن الإنسان بشكل عام، كالهوية واللغة والحرية والمقاومة والدين والحرب والتكنولوجيا والحب والمرأة والقيم والمثل العليا.

وتعتبر موسيقى الروايس قريبة من الألحان الموسيقية الشعبية السائدة في أغلب المناطق الأفريقية من جهة، وبين الأنماط الموسيقية المغربية التي تشمل المناطق الصحراوية كالموسيقى القناوية، وكذلك نوبة الرصد في الموسيقى الأندلسية.

نمط موسيقي خالد في الموروث الشعبي المغربي

صورة تذكارية تجمع أول دفعة من خريجي المعهد في العام 1995

المعهد العالي للموسيقى في دمشق.. ثلاثون عاما من الفن

ثلاثة أجيال من موسيقيي سوريا تحتفل بالمعهد الذي صقل مواهبها

مثّل وجود المعهد العالي للموسيقى في دمشق علامة حضارية كبرى في تاريخ الموسيقى في سوريا ومحيطها. ذلك لأن تأثيره تجاوز الداخل السوري وبلغ المعهد عبر طاقاته وخبراته إلى آفاق عربية وعالمية. وبمناسبة مرور ثلاثين عاما على تأسيسه أقيمت احتفالية كبرى ضمت طيفا واسعا ممّن عمل في المعهد أو تخرّج فيه.

نضال قوشحة
كاتب سوري

دمشق – كان لفنون الموسيقى والغناء نصيب وافر من اهتمام أهل سوريا، فوجدت فيها العديد من معاهد الموسيقى والغناء غاياتها لتعليم أصول الموسيقى والطرب في مراحل مبكرة، إلى جانب بروز العديد من القامات الفنية العملاقة التي أسّست لنهضة موسيقية سورية، امتد تأثيرها حتى على المستوى العربي.

وكانت مدينة حلب صاحبة المكانة الخاصة فوجد فيها الشيخ علي الدرويش الذي ساهم بتأسيس المعاهد الموسيقية في سوريا والعراق ومصر، كما دوّن تراث تونس الغنائي الأصيل. وكذلك عمر البطش الذي تتلمذ على يديه في حلب النابغة المصري سيد درويش فلازمه فيها عامين ليتعلم منه تأليف الموشحات.

تاريخ من الإبداع

تأسّست في سوريا العشرات من مدارس ونوادي الفن، خاصة في دمشق وحلب، مثل النادي الموسيقي السوري الشرقي والنادي الموسيقي الفني ونادي نهضة الموسيقى ونادي دار الألحان والتمثيل ونادي الفارابي ومعهد الآداب والفنون ونادي الصنائع النفيسة ونادي الفنون الجميلة وغيرها من المعاهد والأندية التي كانت تهتم بالفنون وخاصة الموسيقى والغناء.

وكانت أولى محاولة منظمة شهدتها سوريا في التعليم الموسيقي في العام 1946 عندما أسّس الموسيقي والطبيب فؤاد رجائي آغا القلعة، وهو والد الباحث الموسيقي الشهير والأستاذ الجامعي سعدالله آغا القلعة، معهدا موسيقيا على نفقته سماه المعهد الموسيقي الشرقي، جمع فيه خيرة أساتذة الموسيقى للتدريس فيه. وفي العام التالي أنشأ الزعيم الوطني فخري البارودي معهدا موسيقيا في دمشق سماه المعهد الموسيقي. واجتذب إليه خيرة الأساتذة، ثم توقف لمدة بسيطة وعاد البارودي لتأسيسه باسم المعهد الموسيقي الشرقي عام 1950، لكن كلا المعهدين في دمشق وحلب صارا تابعين للدولة السورية بعد تأميمهما لتشرف عليهما وزارة الثقافة.

وحمل معهد دمشق اسم المعهد العربي للموسيقى الذي تغيّر اسمه أخيرا إلى معهد صلحي الوادي اعترافا بدوره الكبير في تأسيس المعهد العالي للموسيقى بدمشق عام 1990، وبعدها الفرقة الوطنية السيمفونية عام 1993.

وكانت انطلاقة المعهد العالي للموسيقى قوية والهدف منها تخريج كوادر موسيقية موهوبة قادرة على تحقيق قفزات فنية كبيرة، تحقّق للموسيقى السورية والعربية ما كانت تصبو إليه.

واعتمد المعهد العالي للموسيقى على العديد من الأساتذة الكبار الذين كانوا موجودين في سوريا، كما اعتمد على بعض الخبرات العالمية خاصة من روسيا، وخلال فترة غير طويلة بدأت تظهر العديد من التشكيلات الموسيقية من خلال المعهد والتي كانت تقدّم حفلاتها ضمن نشاطاته.

فظهرت فرق كورال وفرق "موسيقى الحجرة" ضمن مرحلة الدراسة ومن ثم رفد المعهد الحياة الموسيقية السورية بالعديد من العازفين الذين توجهوا إلى الفرقة الوطنية السيمفونية التي تقدّم الموسيقى الكلاسيكية الغربية، ومن ثم الفرقة الوطنية للموسيقى العربية التي تقدّم الموسيقى العربية والشرقية، وكذلك الأوركسترا التابعة للمعهد وأوركسترا القيثارة وأوركسترا آلات النفخ وفرق دار الأوبرا والعديد من التشكيلات الفنية التي تعمل دائما على تقديم الجديد والمبدع في مجال الموسيقى.

ثلاثون عاما مرّت على إنشاء المعهد العالي للموسيقى بدمشق، قدّمت خلالها عشرات الأسماء الفنية التي صار بعضها لامعا في سماء الفن السوري والعربي. فمنه تخرجت المغنية ديما أورشو وليندا بيطار ورشا رزق ولبنانة قنطار، ومنه تخرّج المؤلف والموزع الموسيقي كمال سكيكرن ورضوان نصري وميساك باغبودريان مايسترو الفرقة الوطنية السيمفونية، وأندريه معلولي مدير عام أوبرا دمشق ومايسترو فرقة أفتيموس السيمفونية، وعدنان فتح الله العميد الحالي للمعهد ومايسترو الفرقة الوطنية للموسيقى العربية.

ومنه تخرّج أيضا رعد خلف مايسترو فرقة زرياب وأوركسترا ماري الخاصتين، ونزيه أسعد وحسام بريمو الذي أسّس العديد من فرق الكورال في سوريا لأعمار شتى وغيرهم الكثير.

ومن خلال خريجي المعهد العالي للموسيقى بدمشق توفّر في سوريا خلال فترة قياسية عدد كبير من المؤلفين الموسيقيين الذين دخلوا مجال الدراما التلفزيونية فألّفوا فيها أعمالا كبيرة.

كما تخرّج من المعهد عشرات من العازفين الذين صاروا معروفين على الصعيد العربي والعالمي منهم كنان العظمة عازف الكلارينيت الذي شارك في حفلات مارسيل خليفة، وكنان أدناوي وشفيع بدرالدين الذي أسّس فرقة سيمفونية في لوكسمبورغ باسم "أورنينا". والبعض من العازفين قدّموا مشاركات في تسجيلات فنية بصحبة المؤلف الموسيقي زياد الرحباني مع الفنانة اللبنانية الشهيرة فيروز.

جمع الماضي بالحاضر

تكريسا لهذا التاريخ الطويل، تم الاحتفال مؤخرا بمرور ثلاثين عاما على تأسيس المعهد، وشارك في الحفل عدد كبير من طلاب وخريجي المعهد، كما شاركت في الحفل الفرقة السيمفونية الوطنية السورية وأوركسترا المعهد العالي للموسيقى وكورال المعهد العالي للموسيقى وكورال الحجرة وفرقة الآلات التقليدية وأوركسترا القيثارات.

وقدّمت في الحفل مجموعة من الألحان العربية والعالمية. فمن موسيقى الروزنا الشعبية التراثية والموشحات الحديثة إلى الحركة الأولى من السيمفوني الخامس لبيتهوفن، كما قدّمت فرقتا الكورال مجموعة أغان غربية وشرقية. وكان للموسيقى الآلية الشرقية نصيب أيضا من الحفل، حيث عزفت مقطوعة لونغا.

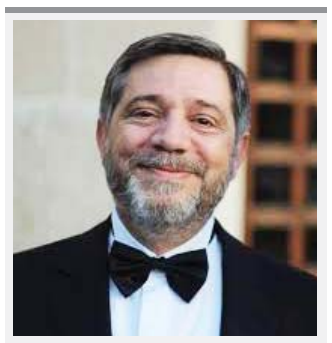

حسام بريمو

> بعد ثلاثين عاما، أصبح معهد الموسيقى الدمشقي قطعة كبيرة من ذاكرتي ووجداني وأحلامي المتحقّقة

كان للمناسبة حضور روحاني كبير عند الموسيقيين فعبروا بالعديد من الآراء عن عواطفهم تجاه الحدث، فقد كتب حسام بريمو وكيل المعهد السابق والأستاذ فيه والمؤسّس لعدد من فرق الكورال "صحبة ثلاثين عاما، أصبح المكان قطعة كبيرة من ذاكرتي ووجداني، دخلته مشروعا موسيقيا، عمل الكثيرون من الأساتذة الكبار على تحويلي إلى موسيقي، الباحة الخارجية، غرف التدريب، غرف المحاضرات، الأوركسترا، الكورال وعشرات الأسماء لم تعد أمكنة وأشخاصا، صارت جزءا مني، لا بل منّا، بين طالب وأستاذ ووكيل وعضو مجلس إدارة، تذوّقت أنواعا شتى من الأحاسيس والخبرات أنا وزملائي، وبات المعهد العالي للموسيقى جزءا عضويا من كياننا ولم يعد مبنى ومؤسّسة تعليمية".

أما عدنان فتح الله عميد المعهد العالي للموسيقى، فقال "أوجه بطاقة شكر لجهود كل المؤسّسين الذين بنوا هذا الصرح الفني الكبير، وأحيي من حضر منهم ومن غاب. وأؤكّد على أن المعهد سيبقى دائما منبعا للثقافة والحضارة، وأن الطلاب فيه سيحظون بكل الرعاية الفنية اللازمة ليكونوا مؤهلين موسيقيا ومعرفيا بما يساهم في رفعة الموسيقى وتطوّرها بسوريا وخارجها".